

## الفصل الثاني

### الحياة الاجتماعية

١

#### طبقات المجتمع

كان يتوزع مجتمع العصر العباسي الثاني ثلاث طبقات أساسية : طبقة عليا تشمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورعوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوي اليسار ، وطبقة وسطى تشمل على رجال الجيش وموظفي الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشمل على العامة من الزّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتي في إثر تلك الطبقات أهل الزمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق في التعميم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُعجبي إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصي الدولة وأدانيها غير ما كان يجبي من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الولى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شؤون إمارته وحاجتها من المساجد والبياراتات ومن بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق سنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليوناً من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه في عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدراهم<sup>(١)</sup> . وتدهور الدخل في عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يباغ مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابي مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهداه في سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانمائة وأربعين ديناراً<sup>(٢)</sup> .

(١) كتاب الوزراء للهلال بن الحسن الصابي (٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابي ص

وكانت هذه القناطر المقنطرة من الدراهم والدنانير تُسْفَقُ سنوياً ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولي المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) ادّخر من كل سنة من سني خلافته مليونَ دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين <sup>(١)</sup> ، وخلفه ابنه المكتفي ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ ) ، فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليوناً <sup>(٢)</sup> . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنوياً وما كانت تُغَلّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدّد - كما مرّ بنا في الفصل الماضي - ثمانين مليوناً من الدنانير . ويورد الصابى في كتابه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتاً <sup>(٣)</sup> بما كان يُسْفَقُ على حواشى الخليفة وداره في عصر المعتضد والمقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) ، وهى تصور عِظَم هذه النفقات . فقد كان يُسْفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهرياً وكان يُسْفَقُ على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهرياً ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفاً ، غير ما يُسْفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُسْفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القراء وأصحاب الأخبار والمنجدين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاحين فى السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنوياً . ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفي عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وأوف من العلمان الحُجُجِرية ( المقيمين فى الحُجُجِرى ) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة <sup>(٤)</sup> . ويروى المؤرخون أن الراضى ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) ، عمل على القمّصّد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .  
 (٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال  
 إن الخدم فى عهد المتوكل كانوا سبعمائة .  
 انظر الديارات للشابشى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .  
 (٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .  
 (٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم  
 دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى  
 فى الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لعهد

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار<sup>(١)</sup> يومياً .

وقد بدأ العصر بالتوكل ، ويمتد إن النفقات لم تبلغ في عصر من عصور اخلفاء ما بلغت في عصره ، وخاصة في بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجْعَلُ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان في الراق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحْتَجَّاجُ إليه من الشراب<sup>(٢)</sup> . وكان كلما بنى قصرأ أتبعه بأخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار ( دار الهنابة ) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشيداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والنهو والواؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليوناً من الدرهم<sup>(٣)</sup> . وكان البرج من أجملها زينة إذ جعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جعل فرشها ظاهراً وباطناً صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصفر مكحلة بالجوهر ، وسُميت طوبى ( من أشجار الجنة ) . واتخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالاً سبعين عظيمين ودرج عليه صور السباع والنسور . وأُنْبِست حيطان القصر من الداخل والخارج بالنسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليوناً وسبعمائة ألف دينار<sup>(٤)</sup> . وتبارى اخلفاء بعد التوكل في بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصرأ ضخماً<sup>(٥)</sup> ، وبنى المعتمد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة<sup>(٦)</sup> ، وبنى المعتضد قصر الثرىة ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياها ، وفيه يقول ابن المعتز<sup>(٧)</sup> :

وَبُنِيَانِ قَصْرِ قَدِ عُلْتُ شُرْفَاتِهِ كَصَفِّ نِسَاءٍ قَدِ تَرَبَّعْنَ فِي الْأَزْرِ

(٥) انظر ياقوت في التاج وديوان البحرى ( طبع دار المعارف ) ١٤٨٣/٣ .  
(٦) ديوان البحرى ١٤٦٧/٣ .  
(٧) ديوان ابن المعتز ( طبعة دار صادر بيروت ) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان في الثرىة .

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .  
(٢) مروج الذهب ٤/٤ .  
(٣) الديارات للشابشى ( الطبعة الثانية ) ص ١٥٩ .  
(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤٠/٤ .

ولعل في كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحياناً يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كسّف المعتضد - كما قدمنا في الفصل الماضي - أربعاً مائة ألف دينار . وكانما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفاً عدد من كان بها في عصر المكتفي والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدُّون بالآلاف ، فطبيعي أن يكون بها فلاحون وأكرا للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحياناً أربعاً مائة (١) . وكانت الدار تشتمل على بساطين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون في هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعاً يدرُّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أجرى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار في كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف (٢) . ولكي نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفي أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩) استخلص - كما مر بنا في الفصل الماضي - من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروي أنه أحصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات في خاصة نفسه دون ما وجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته في سائر ضياعه مليوناً وثلثمائة ألف (٣) . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك - كما ذكرنا في غير هذا الموضع - من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدينانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المحرّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع (٤) . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين (٥) ، ويقال إنه

- 
- (١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .  
 (٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .  
 (٣) مروج الذهب ٤/١٢١ .  
 (٤) مسكويه ٥/٤١٠ .  
 (٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُيِّن وزيراً زاد ثمن الشمع في يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة ، وسُقي في داره في ذلك اليوم وليته أربعون ألف رطل ثلجياً<sup>(١)</sup> .

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواص والخواشي بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة ، وكان يَخْدُو إليه الكَتَّاب ، فيفقههم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه ، ثم يروحون إليه بما عملوا ، وفي أثناء ذلك تُعْرَض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسابات<sup>(٢)</sup> ، والكتَّاب جلوس بين يديه كلٌّ في مكانه ومعه دواته .

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرساً على باب داره وقد يُعَدُّون بالعشرات<sup>(٣)</sup> وكان مجلسه يَغْصُ بغلمان مسلَّحين ، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه ، وأكل مملوك نقر من المماليك والغلمان يتبعونه ، ويَسْرُو بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة في داره فوجدها ثلاثين ونيفاً ويقال ، بل كانت أربعين ، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلاً ، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبوارد وحلوى مما لذ وطاب<sup>(٤)</sup> . وكان الوزير يتولَّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب . واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق ، وعمل كثير منهم في الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب ، أما الوزارة فتولاها منهم في هذا العصر أربعة ، كان في مقدمتهم سليمان بن وهب الذي مرَّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله ، ثم ابن عبيد الله القاسم ، ويقال إن المكتفي زوَّج ابنه أبا أحمد من ابنته ، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة ، أما الصداق فكان مائة ألف دينار<sup>(٥)</sup> ، وأنفق على

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .  
 (٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .  
 (٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ ، ٣٧ .  
 (٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم  
 الزاهرة ٢٠٨/٣ والمهداني ص ٢٠ ، ٣٧ .  
 (٥) النجوم ١٣١/٣ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار<sup>(١)</sup>.

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون في هذا الترف كان يعيش فيه أيضاً القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفقدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقْطَعُونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالاً وفيرة ، ولعل خليفة لم يكن من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقي في عهده كانت تغلُّ سنويًا ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر<sup>(٢)</sup> ، ولما قدم بغداد في عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه<sup>(٣)</sup> ، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله ، فقد أصبح القواد يقدّمون على الوزراء . وكان لهم حجائبهم وممايلكهم وحشدهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاية الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذي مر بنا ذكره قبل تواليته الوزارة للمقتدر والياً على فارس والبصرة ومن ولايتهما كوّن ثروته الواسعة . ويرُوى أن خمارويه صاحب مصر حين زوج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسي حمل معها من الجهاز ما لم يُر مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الحصص الجواهرى البغدادي القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقي بيني وبينك من الحساب شيء ؟ فأجابه كَسْرٌ (باق) طنيف وإذا هو أربعمئة ألف دينار<sup>(٤)</sup> ، فما بالناس إذ بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب<sup>(٥)</sup> . وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد الساماني والى خراسان إلى المكتفي سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون<sup>(٦)</sup> . وكانما أموال الولايات ودخولها كانت ملكاً للولاية ينفقونها في بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وترقى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبي وكان متوايماً من حدود واسط في العراق إلى جُنْدِيسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلص مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

(٤) النجوم ٦٢/٣ .  
 (٥) مروج الذهب ١٤٨/٤ .  
 (٦) النجوم ١٥٦/٣ .

(١) عريب ص ٥٣ .  
 (٢) النجوم ٢٠٣/٣ .  
 (٣) الوزراء ص ٥٠ .

ومن الخبز ألف ثوب ، وخطف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنسج فيها الثياب التي للمبوسه<sup>(١)</sup> وملبوس حرّمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسي يتقاضون من الدواة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتأون مناصب هامة ، وكان منهم دائماً من يحج بالناس في كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقربين منهم إقطاعات وضياعاً كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التي كانوا يرثونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن علي بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق في كل سنة - على شحّه - أربعين ألف درهم في صلوات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفي مصالح الحرمين<sup>(٢)</sup> وكان المعتضد يُجسري على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثاً ألف دينار شهرياً ، وكان يُجسري على أولاد الواثق والمهتدي والمستعين خمسمائة دينار في الشهر<sup>(٣)</sup> .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة في الدعة والنعيم ، وفي مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحياناً مائة دينار في الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة<sup>(٤)</sup> ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحياناً من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضي منصباً رفيعاً ، وكان يتقاضى راتباً عالياً مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير<sup>(٥)</sup> ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شيء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضاً أن منهم من كان مترفاً وسع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضي بجلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودي أنه « قطع لزوجته أربعين ثوباً تُستترى وقصباً (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب في يوم واحد وخطف أموالاً عظيمة »<sup>(٦)</sup> .

٣١٤ ، ٢٠ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ٣٧٧ ،

٤٢١ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٧٤ .

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٨٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص

وكان يدخل في هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياح الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برءوس أموال ضخمة في مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان في مقدمتهم النحاسون الذين كانوا يجابون الرقيق والجواري من أطراف الأرض ، وتجار الطرّف النفيسة التي كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفي أن نذكر ابن الحصاص التاجر الجوهري البغدادي الذي أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيا لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباه مئآت الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عُدَّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليوناً من الدنانير ، ويقول المسعودي : «الذي صَحَّ مما قُبِضَ من ماله من العَيْن (الذهب) والوَرِق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار»<sup>(١)</sup> . وكانت كل طائفة من التجار تقيم في سوق واحد فيقال سوق النحاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهرين والصيدالة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبمبارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التي صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد في عينيه ، فأبى الطبيب الذي عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار<sup>(٢)</sup> . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عِلْسِيَةِ القوم مثل علي بن يحيى المنجم الذي أثرى ثراء طائلا من منادمتة للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

(٢) حكماء الإسلام البيهقي ص ٢١ .

(١) مروج الذهب ٢١٨/٤ والنجوم

١٨٥/٣

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً ، وكانت هذه الرغفان تختلف اختلاف أسر الصبيان في الغنى والفقر ، ولذلك ضربت الأمثال في الاختلاف والتفاوت متفاوت رغفان المعلم واختلافها في الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدر له راتب شهري معلوم .

ويدخل في عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم يتدفق عليهم الأموال تدفقاً ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا في بدخ وترف شديد ، أما عامةهم فيسلسكون في الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب في الدواوين ينتظمون في الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون في الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة في دواوين الخراج ودواوين الجيش وفي أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفي البريد ودواوين الأخبار وفي المكوس والضرائب الجمركية . ويضم إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند من يلبون القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً .

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل في الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والبارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم في أسواقهم أو في دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا في المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجر وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين في تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصناع ، ونجد من كبارهم من كان يربح في صفقة واحدة ألوف الدنانير<sup>(١)</sup> ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجيشياري (طبعة

الجلبي) ص ٣١٩ ، ١٨٥ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم في تجارتهم على ثلاثة آلاف دينار<sup>(١)</sup>، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للتجار لهم بها مناصفة في الأرباح . ونستطيع أن نصور مستوى المعيشة في بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً ، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد<sup>(٢)</sup> . وفي الفرج بعد الشدة للتنوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه ، إذ يروى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار ، فبنى لنفسه داراً بألف دينار ، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجواري ثلاثاً بسبعة آلاف دينار ، وأعطى تاجراً ألفي دينار ليتاجر له فيها ، وخزن عشرة آلاف للشدائد ، واشترى بالباقي ضيعة تُغزل له في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته<sup>(٣)</sup> . وقد لا يصور ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً ، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة ، وكان يُعَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة ، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثروتهم تزيد على ذلك ، وهم الذين كانوا يندمجون في الطبقة الوسطى من الأمة .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهي التي كان يقع عليها عبء العمل كله في الزراعة وفي الصناعات الصغيرة وفي خدمة أرباب القصور ، فهي التي تعمل في الإقطاعات والضياح ، وهي التي تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا ، عاملة تارة أو صانعة ، أو خادمة تارة ثانية . فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدي هذه الطبقة العامة ، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء . ومرّت بنا في الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمروا الدولة تدميراً ، لشدة نفقتهم على الأوضاع التي كانت سائدة ، وما كادت تخدم حتى هبّت ثورة القرامطة ، وعنت بالدولة هي الأخرى عنفاً شديداً ، وشاعت معها فكرة المهدي المنتظر الذي ينشر العدالة بين الناس في الأرض ، ولو أن دعوة القرامطة وُجّهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التي

(٢) مصارع المشاق ص ١٥٩ .

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكتاب

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ١٧/٢ .

المصرى) ص ١٠١ .

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسي حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجِهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعرة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعي ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ورسائل شتى كانت تُبْتَرزُ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون في الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُستَرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم ، وإن سده كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفعلعة والفتراشون والبوابون وكل من يُؤفنون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلَّغون به إلا نادراً وحين يعملون في الدواة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومي . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التي كانت تُفَرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشترى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجار بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة في عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدنتهم من غلاء فاحش أملين أن يمدَّ الخليفة لهم يد المساعدة<sup>(١)</sup>

وكانت هذه الطبقة تعمل في كل المهن الحفيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحرفيين أو المهنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جودت الثقب وانظر أي نجار يدق فيها « الرُّزَّة »<sup>(٢)</sup> وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب في أن ذلك هو الذي أدى إلى أن تنشأ في العالم العربي من قديم فكرة النقابات للحرفيين والصناع وإن كانت حينئذ

(٢) الحيوان ٣/٢٧٦ - ٢٧٧ .

(١) روج الذهب ٤/١٤٩ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القسّاديين وأصحاب الملاهي الصغيرة الطوّافين والحوّافين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضاً كثير من راضة الخيل والسوّاس وأصحاب القنص والصيد بالكلاب والقهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمكّدين ، وكانوا حينئذ خليطاً من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقى أو رُقية ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثّر بها اللصوص ، حتى غدوا في أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم في كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروعة الفرسان ، وكانهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية<sup>(١)</sup> .

وراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم في ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصفون ويحرسون ويحرسون نساؤهم وأسراهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤسائهم الدينيون : للنصارى مثلاً الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم في خصوصياتهم . تسامح لم يعرّفه دين ولم تعرّفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعممهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هي الجزية التي لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا برء منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين في كل ملة فلا يؤدون شيئاً ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدى ثلاثة دنانير لأصحاب

(١) انظر قصة خالد بن يزيد في مطالع

كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم، ودينارين متوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسباً  
الأيضيرهم مع دفعه، وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثني عشر درهماً، وهذا  
دكل لما يدفعونه فى العام المتناول، وهو فى حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم.  
ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد فى أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين  
ألف درهم ومائتى ألف<sup>(١)</sup>، مما يدل على أن دافعى الجزية فى تلك الحقب كانوا  
لا يزالون على نحو عشرين ألفاً، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من  
النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً تبين أن عدد أهل الذمة  
حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفاً. وكانوا جميعاً يشدُّون إلى  
أوساطهم زناير أشبه بأحزمة.

وكان أهل بغداد وغيرها ببغداد من المسلمين يعاملونهم بمعاملة حسنة، فكانوا  
يوسعون لهم فى كل عمل معهم، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم، إذا  
كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود، كما يقول الجاحظ فى  
رسالته الرد<sup>(٢)</sup> على النصارى، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قريوهم منهم واستخدموهم  
فى الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جلييلة مثل  
العطارة والصيرفة، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلمية القوم وأطباء البيارستانات،  
حتى استقر فى أنفس الناس أن الطبيب الجاذق لا يكون إلا مسيحياً. أما اليهود  
فكانوا يعملون فى أحقر المهن، حتى ليقول الجاحظ فى الرسالة آنفة الذكر:

« لا تجد اليهودى إلا صبغاً أو دباًغاً أو قصباً (جزراً) أو شعاباً (مصلح  
جرار وأحذية) »، ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فناء<sup>(٣)</sup>. وكان النصارى  
يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالحة  
وحتى تشملوا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ  
ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيلس السلية

(١) كتاب الحراج القديمة (طبع ليدن) (١) (٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن)

ص ٢٥١ وابن خردادبة: ص ٢٠٢ (٥) ص ٦٦ (٢)

(٢) انظرها فى ثلاث رسائل الجاحظ نشر فنكل .

ويشدوا في أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج برنّب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومن لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زرين ، وأمر أيضاً أن يجعلوا رقعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسلياً ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسلياً وأمر بهدم بيّعتهم وكنائسهم المحدثّة وألا يستعان بهم في الدواوين وأعمال الدولة ، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين<sup>(١)</sup> .

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة في سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دُليل بن يعقوب النصراني كاتب بَغَا<sup>(٢)</sup> . وكثر أهل الذمة بعده في الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة في سنة ٢٧٢ للهجرة ثور عليهم<sup>(٣)</sup> .

ويعظم أمر أهل الذمة في أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم في الكتابة وفي أمور المسلمين فيأمر المقتدر سنة ٢٩٦ بالألا يستخدم أحد منهم إلا في الطب والجهيزة وأن يطالبوا بلبس العسلي وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم<sup>(٤)</sup> ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يومياً إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعاً<sup>(٥)</sup> .

وواضح من هذا كله ما يدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التي كانت تصدر أحياناً بالتحديد عليهم لم تكن تنفّذ ، وأنهم كانوا يعملون في مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون في نعيم غلّق لما يصير لإيهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

(٤) النجوم الزاهرة ١٦٥/٣ .

(١) طبرى ١٧١/٩ وانظر ١٩٦/٩ .

(٥) كتاب الوزراء ص ٢٤٥ وانظر ص ٩٥ .

(٢) طبرى ٢٧٢/٩ .

(٣) طبرى ٩/١٠ .

## الحضارة والترف والملاهي

رأينا تفنن الخلفاء والوزراء في بناء القصور ، حتى ليشبه بعضها مدناً صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والحدادول والبرك والنافورات ، مع التأنق في أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر

وقد افتتح العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التي كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكنى لتصور ما كان في عصره من بذخ وترف شديد أن نروي ما قصه الرواة عن حقه الذي أقامه بمناسبة إعدار ( ختان ) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس في خزائن الفرش بساطاً لإيوان قصر البركوار الذي أقام فيه الإعدار ، وأن يكون في طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطاً مذهيباً مبطناً ، يقال إن التجار قوموه بعشرة آلاف دينار . وبسط في الإيوان ووضع للمتوكل في صدره سرير ، مد بين يديه أربعة آلاف مرفع ( كرسى ) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندى والكافور . ومدت الموائد وتعدى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحضر الأمراء والقواد والندماء فأجلسوا على مراتبهم ، وجيء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صببت فيها حتى ارتفعت . ووزع الغلمان الشراب ، ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملت يده من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه في أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدرهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهَّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان في صحن الدار بين يدي الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسح . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجته قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا في جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبيع بدون حساب ، وكأما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرغبة ولا يقدرون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء في مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء في مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين في مقدمتهم عمرو بن بانه وابن المكي وعصَّت سليمان الطيال وصالح الدقاف وزُناهم الزامر ، وكثير من المغنيات في مقدمتهن عريب وبدعة جاريتهما وشارية وجواريهما . ويُقال إنه أنفق على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم<sup>(١)</sup> . سفه ما بعده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدراهم تُنْفَقُ بدون حساب وبدون أى رقابة في حفلات القصر ، وهى حفلات أمدت التخصُّص في كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع في الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلاً من أن توجه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش في حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مديراً ويتجرَّع غُصَصَ البؤس والخمران ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شاء تُسَنَّى ويُسَنَّقُ فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هـي تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنشَرُ حمول الذهب والفضة . ويروى أن المتوكل شرب يوماً في القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرايم إن عملنا احتفالاً بالورود

(١) الديارات للشابقي (الطبعة الثانية)

ص ١٠٥٠ وما بعدها .

أول كما نطقه بالفارسية : «شاذكلاه» ، فقالوا له : لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : فقالوا له : ادعوا إلى عبید الله بن يحيى - وكان أحد وزراءه - فحضره ، فقال لهم : اضرىب لي دراهم ، في كل درهم حبيستان من الفضة ، فسأله : بكم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ فأجابته خمسين مائة درهم ، فأمر عبید الله بضربها ، فضربت ... وأما المتوكل بضربها ، فقال له : تصبغ طائفة منها بالخمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، وأترك طائفة على بحالها . فصنع عبید الله أمره به ، ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه وكانوا سبعمائة - فأمرهم أن يعد كل منهم قباء جليداً وقلنسوة بخلاف لون إقباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا ، ثم تحيى يوماً فيه ريح ، فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها والندماء حولها ، وعلى الخليم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد طائفة طائفة ، فشربت تبعاً ، وكانت الريح تحملها لحفتها ، افتتطير في الهوام كما يتطير الورد (١) في الورد (٢) فتلعه قبيده ، فكانت قبة بالصلابة في ذلك اليوم كاله

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء بنعمون بالحياة إلى حد السفة والهوس : وطبقات من وزانهم فتر عليها في الرزق ، فهي تعيش في ضنك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب في أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجري في القصر من تحكّم الأتراك في الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم في شيء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفهمهم ، كان يسمعون بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاحى ، فقدموا له بعض المساحر والملاع المصححة ، ومنحهم مليونين من الدراهم . وبحق يقول المسعودى إن الثقات لم تبلغ في وقت من الأوقات ما بلغت في أيام المتوكل (٣) . وكان أكثر أبنائه على عراره من مثل المعتز ، وكان يكر من عقد مجالس الشراب في قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء مجلحة الذهب (٤) . ولم يتوقف هذا التدخ والترف طوال العصر ، ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المفترس لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فرشت قصوره بأجمل الفرش وميلت دار الخلافة

(١) الديارات ص ١٦٠ . (٢) مروج الذهب ٣٩/٤ . (٣) مروج الذهب ٦٢٨١٠٩٤/٤ . (٤) طبرى ٢١٢/٩ .

ودها ليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب السَّمَّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عددُ الغلمان سبعة آلاف خادِم وسبعمائة حاجب بالبزّة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان في دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبّارات والزلاّلات والسّميريات ( سفن شتى ) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبقي المطرز ، ثم أدخلوا قصر الشجرة ، وهي شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصناً عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تتأيل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أدخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقرّ ، وفي الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة<sup>(١)</sup> ، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسي مرتفع في عرش أرمني من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم ( الحرير ) وعلى رأسه معمة سوداء ، ويتقلّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خفّاً أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُردة النبي صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفي أيديهم الطّبّرتينات والدّبابيس ( من أسلحة الحروب ) . وكان يقوم من وراء السرير وجانيه خدم صقالبة يذبّون عن الخليفة بالمذابّ المقمّعة بالذهب والفضة ، وتُمدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صرّفهم مُدّت . ورُتب في الدار قريباً من المجلس خدم بأيديهم قسيّ البنديق يرمون بها الغربان والطيور لثلاثين ناعب أو بصوت مصوت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة بحرسونها من أصوات الغربان والطيور! . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسي الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالة

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها  
والنجوم الزاهرة ١٩٢/٣ .

والقلنسوات الضخمة<sup>(١)</sup>. ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطنة وخفياً<sup>(٢)</sup>. وكان السواد هو اللباس الرسمي العام، وكانوا يلبسون في أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير. وفي يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكل لباسه من القباء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونوابهم، ويجلس في الدهليز من وراء الستر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذن العام دخل وحده حتى يقف في الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولي العهد إن وجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فلن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف في يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب، ثم القواد ونواب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالاً على رسومهم، ثم ينادى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون في الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى في موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل<sup>(٣)</sup>.

وكان يرافق هذه الأبهة أبهته في المسكن والملبس والمطعم، فكانت الستور الجميلة تعلق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تُفَرِّش أرض غرفه وممراته وصحونه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والبارق، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصور ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّحَجِيِّ أحد كبار موظفي الدولة، وصادر أمواله،

(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠.

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠.

(٢) كتاب الوزراء للصابي ص ٣٢٥.

خملت فُرُشٌ وأمتعة من دأره على خمسين بغيراً<sup>(١)</sup>، فما بالناب بما كان في قصور  
الوزراء، فضلاً عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا  
يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصانع يتفنون  
في صنعها من الخبز، والديباغ والحرير. ويروى صاحب الديارات أن المتوكل جلس  
يوماً في أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثياب وشى مشقة، وأمر ألا  
يدخل عليه أحد إلا في ثياب وشى مثله<sup>(٢)</sup>، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم  
ثياب خمراء موردة<sup>(٣)</sup>. ويقال إن المستعين هو الذي أحدث لبس الأكام الواسعة  
فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغر القلائس، وكانت طويلة كأقباع القضاة<sup>(٤)</sup>.  
وكان المعتضد يلبس الثياب الدبقية الرفيعة التي كانت تُصنع بمصر والثياب الحريرية  
التي كانت تصنع بمدينة تُسْتَر وغيرها من المدن الفارسية<sup>(٥)</sup>، ويروى أن إسحق بن  
إبراهيم المصعبي حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانه مغنى العصر  
عشرة أبواب خبز أقلها قيمة بمائة دينار<sup>(٦)</sup>، وكان الخليفة على بغداد محمد بن  
عبد الله بن طاهر يتأنق في ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوشى قيمتهما  
ألف وخمسمائة دينار<sup>(٧)</sup>، وهو بناه أن الراسي والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه  
ثيابه وثياب خواشيه وأصحابه، وكان الشعراء مثل المعين يلبسون الخبز والوشى  
والثياب الحريرية<sup>(٨)</sup>. وكانوا يلبسون في الشتاء القراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب  
باسم المنظر كان يُصنع من القماش المشمع للوقاية من المطر، ونرى البخري  
يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه<sup>(٩)</sup>. ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية  
والحريرية والأحذية الخمراء<sup>(١٠)</sup>. ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون في اقتناء الحجارة  
الكريمة، إذ نرى نقرأ منهم حين تصادر أمواله تضاداً وبينها جواهر ثمينة تبلغ  
قيمتها ألف الدنانير<sup>(١١)</sup>، وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

(١) بطبري ١٦٧/٩، مع لسان حاله (٧٠) الديارات ص ٢٠٣ الجواهر ص ١٠١

(٢) الديارات ص ١٠١ الجواهر ص ١٠١

(٣) الديارات ص ٥٧ الجواهر ص ١٠١

(٤) خروج الذهب ٩٤/٤، تاريخ بغداد ١١٠٦٦/١ والأغانى ٨٥/٣

(٥) خروج الذهب ١٠٦٧/٤، (٦) بطبري ١٦٧/٩، (٧) مع قاطعة ص ١٠١

(٨) الديارات ص ٤٤، (٩) مع قاطعة ص ١٠١، (١٠) مع قاطعة ص ١٠١، (١١) مع قاطعة ص ١٠١

وَيُدْكَرُ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ الْمُسْتَعِينِ فَصَّ يَاقوتُ أَحْمَرَ اشْتَرَاهُ الرَّشِيدُ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ<sup>(١)</sup>، وَيُرَوَّى أَنَّ الْمُقْتَدِرَ طَلَبَ الصَّنَادِيقَ وَأَوْعَيْتَهَا الْمُحْفَوظَةَ بِالْحِزَائِنِ، فَاخْتَارَ مِنْهَا مِائَةَ حِجَّةٍ، وَنَظَمَهَا سُبْحْحَةً يَسِيحُ بِهَا وَعَرَضَتْ عَلَى تِجَارِ الْجَوَاهِرِ فَقَوَّموها كُلَّ حِجَّةٍ مِنْهَا مِائَةَ أَلْفَ دِينَارٍ أَوْ تَزِيدُ<sup>(٢)</sup>.

وَكَانَ النِّسَاءُ حِرَائِرَ وَجَوَارِيَ يَبَالِغْنَ فِي أَنْاقَتِهِنَّ وَزِينَتِهِنَّ، فَكُنَّ يَلْبَسُنَّ ثِيَابَ السَّمْلَعِ، وَالْإِسْتَبْرَقِ، وَالْوَشْيِ، النَّفِيسِ مِنْ كُلِّ لَوْنٍ وَكُنَّ يَتَجَلَّيْنَ بِالْجَوَاهِرِ مِنْ كُلِّ صَيْفٍ: مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالزَّمْرَدِ وَالْيَاقوتِ وَاللَّوْؤِ، وَكُنَّ يَتَّخِذْنَ مِنْهَا تِيجَانًا وَعُقُودًا وَأَقْرَاطًا وَخَلَائِلَ، وَكُنَّ يَبْضَعْنَ بِهَا بِصُورَ مُخْتَلِفَةً عَلَى عَصَائِيهِنَّ وَمِرَاحِيهِنَّ. وَيُرَوَّى أَنَّهُ كَانَ لَدَى قَبِيحَةٍ زَوْجَةُ الْمُتَوَكَّلِ وَأُمُّ الْمُعْتَزِ ثَلَاثَةَ أَسْفَاطٍ: سَفْطٌ مَمْلُوءٌ زَمْرَدًا، وَسَفْطٌ مَمْلُوءٌ بِيَاقوتًا، وَسَفْطٌ مَمْلُوءٌ أَذْرًا كَبِيرًا، وَقَوَّمَتْ الْأَسْفَاطَ فَلَبِغَتْ قِيَمَتُهَا مِائَتَيْنِ مِنَ الدِّنَاطِيرِ. وَكَانَ النِّسَاءُ يَتَّخِذْنَ أَمْشَاطًا مِنَ الصَّدْفِ وَالصُّنْدَلِ<sup>(٣)</sup>.

وَكَانَ يَنْفَسُ فِي أَوْصَاعِ إِشْجُورِهِنَّ عَلَى رُؤُسِهِنَّ وَجِبَاهِهِنَّ، وَقَدْ يَلْوِيهَا عَلَى أَصْدَاعِهِنَّ فِي هَيْئَةِ حُرُوفِ النُّونِ أَوْ عَلَى هَيْئَةِ الْعُقْرَبِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ ابْنُ الْمُعْتَزِ<sup>(٤)</sup>:

لَوْ كُنْتُ صُدْعُهُ كَالنُّونِ مِنْ تَحْتِ طَرَفِهِ  
تُرْهِى نِعَاجَ حَبِيبِينَ  
وَيَقُولُ أَيْضًا<sup>(٥)</sup>:

رَسْمٌ يَتَّبِعُهُ بِحَسَنِ صُورَتِهِ  
عَبَثَ الْفَتُورُ بِلِحْظِهِ مُقَلِّدُهُ  
وَكَانَ عُقْرَبًا صُدْعُهُ وَقَفَتْ لَمَّا دَنَيْتُ  
مِنْ نَارِ وَجَنَّتِهِ  
وَكَانَ يَتَعَطَّرُ بِطِيبِ الْمَسْكِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ ابْنُ الْمُعْتَزِ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَبَطِيبِ

الْغَالِيَةِ وَالزُّعْفَرَانِ وَالْعَنْبَرِ. وَيَقَالُ إِنَّ عَرَبِيَّةَ الْمُغْنِيَةِ الْمُتَوَفَاةَ سَنَةَ ٢٧٧ عَنْ سِنِّ عَالِيَةٍ كَانَتْ تَغْسِلُ شَعْرَهَا مِنْ أَسْبُوعٍ إِلَى أُسْبُوعٍ وَتَغْلِقُهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بِسِتِّينَ مِثْقَالًا مِنَ الْمَسْكِ وَالْعَنْبَرِ<sup>(٦)</sup>. وَيَقُولُ الْجَاحِظُ: إِنَّ الْمَرْأَةَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْوَسْطَى حِينَ كَانَتْ تَهَيِّئُ ابْتِهَاجَ الزَّوَاجِ كَانَتْ تَحْلِيهَا بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَتَكْسُوها الْثِيَابَ الْخَرِيرِيَّةَ وَتَهْدِيهَا

(١) مروج الذهب ٨٣/٤. (٢) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٣) طبري ١/٣٩٥/٩ بمثلها (٤) ص ٤٥٢ (٥) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٦) مروج الذهب ٨٣/٤.

(٢) طبري ١/٣٩٥/٩ بمثلها (٣) ص ٤٥٢ (٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٥) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٦) مروج الذهب ٨٣/٤.

(٢) طبري ١/٣٩٥/٩ بمثلها (٣) ص ٤٥٢ (٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٥) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر بيروت) (٦) مروج الذهب ٨٣/٤.

بالطيب العسبي<sup>(١)</sup>. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا في المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التي ألقت حينئذ في فن الطبخ للحارث بن بسنخسر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولي ولعلي بن يحيى المنجم ولجسحظة البرمكي وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم في كتابه الفهرست<sup>(٢)</sup>، وكان الخلفاء يأكلون في آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتني كانت تقدم على مائدته عشرة ألوان في كل يوم سوى صنوف الحلواء<sup>(٣)</sup>، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدر بثلاثين ديناراً<sup>(٤)</sup>، ويقال إن ثمن المسك الذي كان يُنفقُ يومياً في مطبخه عشرة دنانير<sup>(٥)</sup> فما بالناس بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون في الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها في كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابي في كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جدياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابي مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه في كل يوم تسعة من أصفيائه الكتّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة في الوقت من خير شيء ، ثم يُجعل في الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سيكين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكُمثرى ، ومعه طست زجاج يرُمى فيه بالثفل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيات الأطباق وقُدّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشاة بدبقي فوق مكبة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) آدم فاضلة عنها، وحواليها مناديل . . . فإذا

(١) البخلاء (طبعة دارالكاتب المصري) ص ٢٥ . (٣) مروج الذهب ١٩١/٤ .  
 (٢) الفهرست لابن النديم ( الطبعة الثانية ) ص ١٨٣ .  
 (٤) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .  
 (٥) المكتبة التجارية بمصر ) ص ٤٥٤ .

وُضعت رُفعت المكبّة ( غطاء الآنية ) والأغشية ، وأخذ القوم في الأكل ، وابن  
الفرات يحدثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ  
وتُرفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس في جانب المجلس الذي كانوا فيه  
ويغسلون أيديهم ، والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم  
المناديل الدبقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصبّه على وجوههم<sup>(١)</sup> ، وكان  
العباسيين لم يتركوا للمدينة الحديثة شيئاً .

وكان في بيوت الكبراء شرابي يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح<sup>(٢)</sup> ، وكان  
بجانبه الشواء والطبخ والحبّاز والحبّاص وهو الذي يصنع الحلوى ، وفي كتاب  
البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السكّاج ، وهو  
لحم يُطبخُ بخلّ ويضاف إليه شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمصّيرة  
وهي لحم مزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهي شرائح مشوية من اللحم ، والطبايح  
وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهي لحم وماء وسميد إلى غير ذلك من  
أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من  
اللوز والدقيق والفسق وبيرش<sup>٣</sup> بماء الورد ، ومنها الفالودج وهو حلوى من  
النشا وعسل النحل والسمن ، والخشكّنان وهو كعك يُحشّى بالجوز والسكر .  
ثم الأشربة ومنها الجلاب وهو شراب مزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام  
المشهيّات ويسمونّها النُقُل ، وكانت تتألف - كما في عصرنا - من أشياء حريفة .  
وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منشوراً في كتاب البخلاء للجاحظ وعيون  
الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للشواء ، وفيه فصل طريف  
عن زى الظرفاء في الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائمًا  
نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماءه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ١١/٢ .

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٥ .

النوادر والفكاهات ومن يعرفون كيف يرضونه في مناعات صفوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلوات السنية على نحو ما يروى عن علي بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديماً ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهي من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة في عصر المهدي ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله في مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل (١) . ونجد في بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنيس الصيمري الذي قلد أمامه البحري في إنشاده الشعر تقليداً مضحكاً . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفي مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودي بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس في أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله » (٢) ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد في كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتمد يفرد حجرة الندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره (٣) . واشتهر الراضي بأنه كان يوسع في مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه في أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولي وواحد من بنى حمدون » (٤) . وكان للوزراء ندمائهم ، بل كان أيضاً لعلية القوم وكبار الموظفين في الدولة ، ويكفي أن نعرف مثلاً أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينسبط إلى سواهم (٥) ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هي التي دفعت الجاحظ إلى كتابته مصنفه البخلاء للتسلية والتندر ، وكثر من حوله

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢١٧/٢ . (٤) مروج الذهب ٢٤٤/٤ .

(٢) مروج الذهب ١٣٨/٤ . (٥) مروج الذهب ١٦٣/٤ .

(٣) تاريخ بغداد ٣٨٠/٧ . (٦) تاريخ بغداد ٣٦٠/٧ .

التأليف في المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات<sup>(١)</sup> . وكانوا يشغفون - وفي مقدمتهم الخلفاء - بصروب كثيرة من الملاهي ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل<sup>(٢)</sup> ، ومن كان يعجب بهم أصحاب السهافة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلي ، الذين كانوا يقلدون الناس في حركاتهم وأصواتهم<sup>(٣)</sup> . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة<sup>(٤)</sup> وتواب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمع غناء شارية وزمرزنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمي من نحاس يرسل فيها الماء فيستخرج لها زمر السرنائي (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها القليل والسبع كيف يتواثبان<sup>(٥)</sup> . ومن أهم ملاحظتهم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تفتتح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبي القاسم التوزي الشطرنجي ، ومثل محمد بن يحيى الصولي ، ويقال إن المكتفي استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردي ، ولكن الصولي قهره وغلبه<sup>(٦)</sup> . ويحدثنا المسعودي بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يلعب على رقعة آدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هياتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجمية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودي إنه استحدثت في زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سموها كل بيت من أبنائها باسم جارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبين وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويراهنون في لعبة الشطرنج ، وكذلك في لعبة النرد ( الطاولة ) ، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

---

(١) الفهرست ص ٤٤٩ .  
(٢) مروج الذهب ٤/٤٧٠ .  
(٣) مروج الذهب ٤/٤٧٠ .  
(٤) مروج الذهب ٤/٤٧٠ .  
(٥) الديارات ص ٣٩ .  
(٦) مروج الذهب ٤/٤٧٠ .

كان يدار الخلافة منذ المتصم حظيرة الحيوان تسمى خير الحيوان . انظر الأغاني (طبعة الساسي) ١٠/١٣٠ .

(١) مروج الذهب ٤/٢٣٧ .

(٢) مروج الذهب ٤/٨٢٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٣٠٣ .

(٤) الديارات ص ١١٠ .

بها أربعة وعشرون منزلاً بثلاثين حجراً وفصين يجرى بهما اللعب كما هو معروف في عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغولاً به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً<sup>(١)</sup> .

واعلم ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك في موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون في تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الحيالة والفرسان ، وكانت في دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة<sup>(٢)</sup> ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويروى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميداناً في داره يوم جمعة ليضرب الصوالة مع بعض غلمانها ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتاً<sup>(٣)</sup> . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خلسةً من تحت مخزّم الدابة لقاء لبثتها ، وعليه أن يحسن كفة الدابة في شدة جريانها متوقياً من الصرعة والصدمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقنص أفواجاً ، واشتهر غير خليفة بالحروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفاً به المعتضد « وكان كالمعتصم في أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء في محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفك من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسد ، فيخيم عليها حتى لا يبقى منها باقية »<sup>(٤)</sup> وكان ابنه المكتن مشغولاً مثله بالصيد « وكان أكثر ما يد منه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سبعا الضواري والحوارج ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتنعها فيه لشدة الشغف به

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣٨ .

(١) كتاب الديارات ص ١١ .

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .

والارتياح إليه»<sup>(١)</sup>. ومنذ أبي نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاجم آلاته عرضاً مفصلاً في كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطّرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة<sup>(٢)</sup> .

وكانت العامة تجد تسليتها المحبّبة عند قُصّاص كانوا منتشرين في طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لئرى المعتمد يأمر في سنة ٢٧٩ بالنداء في بغداد ألا يقعد على الطريق ولا في المسجد الجامع قاصٌ ولا صاحب نجوم ولا زاجر<sup>(٣)</sup> . وكان اللعب بخيال الظل معروفاً حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك<sup>(٤)</sup> . وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون في طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازين ببغداد من الأعراب والحراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكي سمات من يحكيه جميعاً ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير<sup>(٥)</sup> . ومن أشهر هؤلاء الحكّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلي ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان في نهاية الحدق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابي أو مكّي أو نَجْدِيّ أو تركي أو نبطي أو زنجي أو سندي إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه<sup>(٦)</sup> .

(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .

(٥) البيان والتبيين ١/٦٩ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .

(٢) الحيوان ٧/٦٢ .

(٣) طبري ١٠/٤٨، ٥٤ والنجوم الزاهرة ٣/٨٠ .

## الرقيق والحوارى والغناء

كان الرقيق منتشراً في كل مكان ، في القصور وفي الأكواخ وفي الصناعات وفي الزراعة ، وكان كثيراً كثيرة مفرطة ، فمنه السندي ومنه الإفريقي الزنجي والحبشي والسوداني ومنه التركي والصقلبي ، ومنه الصيني والحراساني والأرمني والبربرى ، وكأعمال كانت تجمبع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ في الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محايين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبتلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق في ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى أيسني لها في كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيسم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامراء في القرن الثالث الهجرى كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الخمر والغرف والحواريات (١) .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الخنث في اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدخره من العمل ، حتى إذا وفاه ردت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب في الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يشتمعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كثيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة في البصرة ، مما جعلهم يشورون لعصر المعتمد — كما مر بنا — ثورة عارمة . ولا ريب في أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ . (٢) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ . (٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعاً إلى الإحسان للأرقاء والبرِّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا في آية سورة النساء: ( وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى . . . وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ) ، وفي الحديث النبوي: « شر الناس من أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده » ، وفيه أيضاً: « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلِبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفي مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعقوبتهم بعد موتهم ، ويُرَوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعقوبة ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به في المدن الخدمة ، ويقول المسعودي إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين<sup>(١)</sup> . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الحصيان ، ومع أن الإسلام حرم الخصاء تحريماً باتاً نجد الحصيان منتشرين في العالم الإسلامي انتشاراً واسعاً . وكانوا يُخصَّصون خارج حدود الدولة الإسلامية : في بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجلبون ويبيعون في أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثاني الهجري . « وكانت انتشارهم باعثاً على أن تلبس بعض الجوارى المسمّين بالغلّاميات ملابسهم ، وترتبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رآته يستكثر من الحصيان اتخذت الجوارى المتمدودات الحسان الوجوه ، وعمّمت رعوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداع والأقفية ( صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهاً بالفتيان ) وألبستهنّ الأثبية والقراطق والمناطق ( ملابس الفتيان ) فاستقدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنتها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس »<sup>(٢)</sup> فقدّده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

(٢) مروج الذهب ٤/٢٢٦ .

(١) مروج الذهب ٤/١٥٨ .

سنة ٣٢٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى في قصره جواري يلبسن القراطق والأقبية والطَّرَّ ومناطق الذهب والفضة<sup>(١)</sup>.

وكثرة الخصيان هي التي هيَّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفي أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان في قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصي<sup>(٢)</sup>. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احتراماً لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصيَّ الخادم والأستاذ<sup>(٣)</sup>. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفاً من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق<sup>(٤)</sup>. ويروى المسعودي أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم في الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعاً يصيحون بهم : « يا عقيق صبَّ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق »<sup>(٥)</sup>. وكان المضحكون المهزليون في الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم<sup>(٦)</sup>.

وكانت الإماء والجواري في الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يملك ما شاء من الجواري والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللاتي يقترون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئاً ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرضة لهم في دور النخاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها في أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضْطَرُّون لاتخاذ دلائل يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجواري المعروضات للبيع دائماً كثير من الفاتنات الفارسيات والحراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكنَّ يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجواري والإماء هذا التعدد ، وأكبوا عليه إكباباً .

(٤) طبرى ١٠/٥٣ .

(٥) مروج الذهب ٤/١٧١ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ ، ١٦٤ .

(١) مروج الذهب ٤/٢٢٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .

(٣) مروج الذهب ٤/١٧٨ ، ١٨٠ .

وكان إمامهم في ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية (١) ، وهي رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهدها عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان في الهدية محبوبة (٢) . وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويروى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفي حين ولي الخلافة مائة وخمسين جارية (٣) . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء في العصر كُنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن في شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم في المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهد فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومي المسمى غريباً في النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بني هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل - كما مر بنا في غير هذا الموضع - أن تقعد في الرصافة كل يوم جمعة للنظر في المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرجون على الوافدات الجلديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رعوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخاسٍ منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار (٤) ، ويذكر أبو الفرج الأصبهاني عن نخاسٍ يسمى أبا عمير أنه كان له جوارهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبي عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

(١) مروج الذهب ٤ / ٤٠ .

(٢) أغاني (سامى) ١٣٢/١٩ ونساء

(٣) مروج الذهب ٤ / ٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار

المعارف) ص ٤٢٦ .

الخلفاء لابن السامى ص ٩٢ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبتة ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكّى أبو عمير قليلاً لأتيناه من طريق العيادة  
فقضينا من العيادة حقاً ونظرنا في مقلتي عباده

فقال أبو عمير : مالي ولك يا أخى ، انظر في مقلتي عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا في عافية لا تمنى لي المرض لتعودنى<sup>(١)</sup> . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبي عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريتهم ، مما كان يكلفهم أموالاً كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ في رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس « أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يُقصدُ بها الخلفاء والعظماء فيزار ولا يكلف الزيارة ، ويوصل ولا يُحمّل على الصلة ، ويُهدى إليه ولا تُقضى منه الهدية »<sup>(٢)</sup> . ويصور الجاحظ تفنن الجارية في اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسّت أنه وقع في الشراك أوهمته أنها تعلقّت به وأنه شجّوها في فكرها وضميرها ولبها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تتبغيه لماله وهداياها وإنما لنفسه ، ثم جمّسته بعضوض تفاعها وتحيات من ريحانها وزودته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته في بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يتسعرنّ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهم وقد بذلن لمن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفي ذلك يقول على بن الجهم متحدّثاً عن جوارى نخّاس يسمى المفضل وابتزاز صاحبهن أموال من يزورنهن<sup>(٣)</sup> :

أوانس ما فيهنّ للضيف حشمةٌ ولا ربهن بالمهيب المبيجّل

(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمي

العربي بدمشق) ص ٥٢ .

(١) أغاني (سامي) ٤٣ / ٢٠ .

(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .

يُسْرُ إِذَا مَا الضَّيْفُ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَيَغْفَلُ عَنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَغْفَلٍ  
وَلَا يَدْفَعُ الْأَيْدِي السَّفِيهَةَ غَيْرَةً إِذَا نَالَ حِطًّا مِنْ لَبُوسٍ وَمَأْكَلٍ  
لِكَ الْبَيْتُ مَا دَامَتْ هَدَايَاكَ جَمَّةً وَدُمْتَ مَلِيًّا بِالشَّرَابِ الْمَعْسَلِ

وكان دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رُوَّاده .  
وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب  
والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنن نظم الشعر مثل  
فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسي يُعنى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح  
ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر في الفن الموسيقي على نحو  
ما يتضح في أوائل ترجمة إسحق الموصلي في كتاب الأغاني وكذلك ما ساقه منها  
كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية في هذا التأليف  
منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا  
التأليف في القرن الثالث ، وخاصة في بيئة المتفلسفة مثل الكندي وله في الموسيقى  
كتب مختلفة<sup>(١)</sup> ، وكذلك لتلميذه<sup>(٢)</sup> أبي الطيب السرخسي ولقسطا<sup>(٣)</sup> بن لوقا  
البلعكي ، فلكل هؤلاء مؤلفات في الموسيقى أحصاها ابن النديم في فهرسته .  
وخلف من بعدهم الفارابي بأخرة من العصر فأرربى على كل سالف وخالف من  
اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح في مصنفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد  
استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق  
ابن النديم كتب المتفلسفة في الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفي الغناء والمغنين  
والمغنيات ، وإسحق الموصلي في ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه في القرن  
الثالث على التأليف في هذا الفن بتدل<sup>(٤)</sup> ، وكان لها كتاب في الأغاني يشتمل  
على اثني عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد  
في الأغاني مشهور<sup>(٥)</sup> ، ومن ذكرهم ابن النديم النَّصْبِي وله كتاب في الأغاني ألفه

(٤) الأغاني (سأى) ١٥ / ١٣٨ .

(٥) الأغاني (سأى) ١٦ / ١٣١ .

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .

(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .

(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .

على حروف المعجم للمتوكل<sup>(١)</sup>.

ومنهم جحظة وله كتاب في الطَّبَّورِيِّين<sup>(٢)</sup>، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وابن بانه كتاباً في الأغاني يُعَدُّ من الأصول المهمة فيها<sup>(٣)</sup>، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكي كتاب سماه المجرى في الأغاني كان يحتوي على أربعة عشر ألف صوت<sup>(٤)</sup>، وكان لمحمد بن علي بن أمية المعروف باسم أبي حشيشة كتاب في أخبار الطَّبَّورِيِّين<sup>(٥)</sup>. وعمل في هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرساً وغير فرس، بل إن منهم من اخترع بعض الآلات مثل زُناَم الزامر، فقد اخترع نايّاً نُسب إليه، فقبل ناي زُنَامي<sup>(٦)</sup>. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك في وضع أصواته مثل المنتصر<sup>(٧)</sup> والمعتز<sup>(٨)</sup> والمعتمد<sup>(٩)</sup> وابن المعتز<sup>(١٠)</sup> وعبيد<sup>(١١)</sup> الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحاناً كثيرة في صوت واحد، وكانت له كتب في النغم وعلل الأغاني.

وكانت تتقابل في الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلي، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفني في الغناء أصواتاً وأنغاماً وألحاناً ويمثلها إبراهيم بن المهدي، ويحكي أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان في مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلًا أولاً وخفيفه كان يسميه لإبراهيم بن المهدي ثقيلًا ثانيًا وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلًا ثانيًا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدي ثقيلًا أولاً وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما في تنازعهما فيهما، حتى كان يمضي لهما

(٧) أغاني (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وانظر

(١) الفهرست ص ٢١٤ .

في أصوات أخيه أبي عيسى الأغاني ٢٠١/١٠ .

(٢) الفهرست ص ٢١٤ .

(٨) أغاني ٢٠٥/٩ .

(٣) أغاني (دار الكتب) ٢٦٩/١٥ .

(٩) أغاني ٣٢٣/٩ .

(٤) أغاني ٣١١/١٦ .

(١٠) أغاني ٢٧٧/١٠ .

(٥) الفهرست ص ٢١٤ .

(١١) أغاني ٤٠/٩ وما بعدها .

(٦) تاج العروس للزبيدي ٣٣٠/٨ .

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتها ومكاتبتهما في قسمة وتجزئة صوت واحد<sup>(١)</sup> . وقد توزعاً المغنين والمغنيات في القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق ، ومن رأى التجديد والتغيير في الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدي . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك ، فمن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين في هذا العصر أحمد بن يحيى المكي ، وله ترجمة<sup>(٢)</sup> في كتاب الأغاني وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . ومن كان ينهج منهج إسحق بنان ، وكان أخص الناس بالمتوكل والمتنصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنم الزامر على الضرب بالعود والزممر أحسننا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضاً عبد الله<sup>(٣)</sup> بن أبي العلاء ، وقد عُمّر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوم دابته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابيين . ومن كان على نهج إسحق أيضاً القاسم بن زُرُور وولده وجواري آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومن جرى مجراهم ممن تمسك بالغناء القديم وحمله كما سمعه<sup>(٤)</sup> . ومن كان على مثاله أيضاً الزبير بن دحمان ، وكان متعصباً لإسحق ، في حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدي ، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكوره ، يقول أبو الفرج : « فعلا الزبير بتقديم إسحق له » لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه<sup>(٥)</sup> ، وكان أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئاً خاصاً بالغناء ، بل كان عاماً فيه وفي الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعاً يستمسكون بالتقاليد الموروثة . ومن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدي ورغباته في التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيساً به ، ونال منه جوائز كثيرة « وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدي في الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصباً شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدي عليه »<sup>(٦)</sup> ، ويقول أبو الفرج إنه علم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه في مذهبه محمد بن الحارث بن بسخر ،

(٤) أغاني ( دار الكتب ) ٧٠/١٠ .

(٥) أغاني ( ساسي ) ١٤٤/٢٠ .

(٦) أغاني ( دار الكتب ) ٢٦٩/١٥ .

(١) أغاني ٩٦/١٠ وما بعدها .

(٢) أغاني ٣١١/١٦ .

(٣) أغاني ساسي ١١٤/٢٠ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدي ومن بحره استقى » ، وكان يُغَنِّي على المعزفة فنقله ابن المهدي إلى العود وواظب عليه حتى حدقه<sup>(١)</sup> ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكباً ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللاتى برعن في الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبيين : حزباً يتبع إسحق الموصلى وحزباً يتبع إبراهيم بن المهدي كذلك كانت المغنيات ، ومن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواربها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها<sup>(٢)</sup> ذكر في صدرها أنها كانت نهاية في الجمال والظرف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاه المراكبي وكان عمرها سبعة عشر عاماً ونظمها في جواربه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهي مولاته ، وظلت تغنى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذي صنعته فأخذ منها دفاترها وصُحفها التي كانت سجّلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جارتها بدعة<sup>(٣)</sup> بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب في شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفاً ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهرًا وضياعاً وعقارات . أما اللاتى كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدي فعلى رأسهن شارية<sup>(٤)</sup> جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذا خرَّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعه لها ضنّاً بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتمد ، وكان يأبى أن يلحن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتاً بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواربها اللاتى

١٠/١٥٠ والهمداني ص ١٥ .

(١) أغاني (ساسي) ٢٠/٨٢ .

(٤) أغاني (دار الكتب) ٣/١٦ وما

(٢) أغاني ١٨/١٧٥ وما بعدها .

بعدها .

(٣) أغاني ١٩/١٢٥ وعريب ٢٨ والطبرى .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدي : مهرجان ومطرب وقمرية وشرة  
وقد اشترها المعتمد بعشرة آلاف دينار

ومن كنَّ يحسن الغناء فريدة<sup>(١)</sup> زوجة المتوكل وجاريتها محبوبة<sup>(٢)</sup> وقلم<sup>(٣)</sup>  
الصالحية وشاجي<sup>(٤)</sup> جارية عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وقد نسب  
إليها كل ما صنع من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء  
على الطنبور في مقدمتها أبو حشيشة<sup>(٥)</sup> الطنبوري الذي عاش إلى عصر المعتمد ،  
وسليمان<sup>(٦)</sup> بن القصار الطنبوري ، وكان المعتز أنيساً به ، ويقال إنه غناه يوماً  
صوتاً فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضرب لخزائنه ، وجمحة البرمكي وله  
ترجمة طويلة في معجم الأدباء ، وعمر<sup>(٧)</sup> الميّداني ولم يكن في الطنبوريين أصح غناء  
وأكثر تصرفاً منه ، وعبيدة<sup>(٨)</sup> الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور  
إتقاناً بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة  
أربعاً هي العود والحنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور<sup>(٩)</sup> .  
وكثيراً أيضاً ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفي مروج الذهب للمسعودي فصل<sup>(١٠)</sup>  
طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ،  
وفيه تسمى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والمزج ،  
وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون  
الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجواري في هذا الجو المشعب بالموسيقى والغناء أثر كبير في شيوع الطّرف  
والرقة واللفظ ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التي  
تملأ قلوبهم ليناً وبيراً وعطفاً ووداً ، وقد خلدوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذي  
يصب في القلوب تارة رحيقاً وتارة حريقاً ، حديث العشق وما يشيع فيه من

- |                                       |                                  |
|---------------------------------------|----------------------------------|
| (١) أغاني ١١٤/٤ .                     | والفهرست ص ٢١٤ .                 |
| (٢) أغاني (ساسي) ١٣٢/١٩ .             | (٦) أغاني (دار الكتب) ١١٢/١٤ .   |
| (٣) أغاني (دار الكتب) ٣٤٧/١٣ .        | (٧) أغاني (ساسي) ٦٦/٢٠ .         |
| (٤) أغاني (ساسي) ٤٢/٨ ونشوار المحاضرة | (٨) أغاني ١٣٤/١٩ .               |
| ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها .      | (٩) التنوخي على المستطرف ١٤٤/٢ . |
| (٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٥٧/٣  | (١٠) مروج الذهب ١٣٧/٤ .          |

العواطف والمواجيد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادي كثير الشباك : شبك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطوني نقي كثير الحجب : حجب الطهّر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعاني الرقة واللفظ المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة في الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلاً خاصاً في كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل في فنون الظرف التي أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهار الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة باباً مهماً من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء في الأزهار معاني السلوى في الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر في معنى الورد الحجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص في البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعاني ، كما كان يجيئ بها بعضهم بعضاً ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الحارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفتحها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتاً أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز<sup>(١)</sup> :

وآثار وصلٍ في هوائِ حفظتها      تحيَّاتِ ريحانٍ وعَضَّاتِ تُفَاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكام والقلائس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة<sup>(٢)</sup> ، ويُروى أن عريب كانت تلبس قميصاً موشحاً بالذهب ، كُتِبَ في وشاحه :

وإني لأهواه مسيئاً ومحسنأً      وأقضى على قلبي له بالذي يقضى  
فحتى متى روح الرضا لا ينالني      وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

(١) طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤٢٥/٦

وما بعدها .

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد

وكن يتنافسن في التهادى بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعلمن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

## ٤

## المجون والشعبية والزندقة

رأينا في كتابنا العصر العباسي الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يسمعون في شرب الخمر واحتساء كثوسها ، مدمنين عليها لا يرعون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجيء ذلك بنص القرآن ، وما كان محرّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكّره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبذ التمر والعسل والتين والبُرّ وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء ، وتجاوزوا ما حلّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

أباح العراقيّ النبيذَ وشُرْبَهُ      وقال حَرَامان: المَدَامَةُ والسُّكْرُ

وقال الحجازيُّ: الشرابان واحدٌ      فحلّ لنا من بين قوليهما العُخْمَرُ

سأخذ من قوليهما طرفيهما      وأشربها لا فارق الوازرَ الوزرُ

وابن الرومي يريد بالحجازي الشافعي وبالعراقي أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا في

(١) ديوان ابن الرومي (اختيار وتصنيف كامل كيلاني) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يبقوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد في قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورد والرياحين<sup>(١)</sup> وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب<sup>(٢)</sup> ، وكان يشرب في قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب في البساتين<sup>(٣)</sup> . وفرغ المعتمد — كما مر بنا في غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودي : « كان مشغوفاً بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع الهو والملاهي<sup>(٤)</sup> ، وديوان ابن المعتز مليء بالخمير ودنانها وكثوسها وغبوقها وصبوحها . وكان القاهر مدمناً شرب الخمر<sup>(٥)</sup> كما كان مولعاً بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده<sup>(٦)</sup> ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه بجلساته وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكنفي وكان قد ترك الشراب ، فلما ولي الخلافة دعا به تَوَّراً وعاد إلى شربه<sup>(٧)</sup> .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيْد ، كان يعكف عليها عكوفاً شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين<sup>(٨)</sup> . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يحس أن بعض الناس أدمنوها إدماناً شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس في المساء والليل والصبح ، وآثروا ألا يقل عدد

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر في صبوح .

المتصر أغاني (سامي) ١٣٠ / ١٧ .

(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .

(٤) مروج الذهب ١٣١ / ٤ .

(٥) النجوم الزاهرة ٢٤٥ / ٣ .

(٦) ابن الأثير (طبعة أوروبا) ٢٠٤ / ٨ .

(٧) مروج الذهب ٢٦٧ / ٤ .

(٨) النجوم الزاهرة ٢٤١ / ٣ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والحوارى وكانوا يزینون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزینون رموسهم أحياناً بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبئين أيضاً في سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الحواری الطريقات الأدبيات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كثوسها ويتمتعون بالسماع ومغازاة الحواری والقيان .

وكانت البساتين حول سامراء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلفون بأنفسهم إلى زاوية في بستان ويتمخون منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تمتلئ بجمال الحواری وأذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى (١) :

اشربْ على زهر الرياض يشربه زهرُ الخدود وزهرة الصهباء  
من قهوة تُنسى الهموم وتبعث ال شوقَ الذي قد ضلَّ في الأحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء ، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذمياً وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذاز أو ميسا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مخطوم العنق » (٢) وتختلط في النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الحواری فكان من القيان الأجنبية غالباً ، وكانت تعج بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعرن بشيء من الكرامة أو يستشعرن شيئاً من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن في الخيل التي يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخيلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٩٢/١ .

(١) الديوان ٦/١ .

كثير من الفجر والمجون ، وكل شيء من حولهن يُغريهن على هذا السلوك الآثم ، وصور ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من هو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يُسمع منه كلمة جيد ، ولا يُرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت ( أغنية ) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعدد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغلظة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرّحهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة » (١) . وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيمين هداياهم النفيسة ، وكان بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعمرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرّجن ، ودائماً يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة فى هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهى لها ذلك أنها كانت تقدّم لرؤاها الخمر المعتقة . وكانت متناثرة فى ضواحي بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخرمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتؤكّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشتى وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متزهات سامراء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته (٢) :

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

(١) انظر ثلاث رسائل الجاحظ نشر فنكل

ص ٧١ وما بعدها .

ياليالى بالمطيرة والكرّ خ ودير السوسى بالله عودى  
كنت عندى أنموذجات من الجندة لكنها بغير خلود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء وبغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحاً وغير مباح ويتفرجون على القصاص والحكّائين وأصحاب المسايخر الهزليين ، أما أعياد الإسلام فهى ~~أعياد الفرس~~ عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحرى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة<sup>(١)</sup> ، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحرى يهنئ<sup>٢</sup> المعتمد به وبلحظات سروره<sup>(٢)</sup> :

لا تَخُلُّ من عيش يكرُّ سروره أبداً ونيروزٍ عليك معادٍ

وكانو يكترون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء<sup>(٣)</sup> . وكانو يخرجون فيه إلى المنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحرى<sup>(٤)</sup> :

وكانَ الأيامُ أوثر بالحُسنة نِ عليها ذو المهرجان الكبير

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئ<sup>٥</sup> فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون الهو فيه<sup>(٥)</sup> ، وكان للفرس عيد يسمى عيد السنّاق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلمون يجمعون لها الأحطاب أياماً ، ومن أشهر ما كان فى هذا العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به ، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر<sup>(٦)</sup> .

(٥) ديوان ابن الرومى ( نشر كيلانى )

ص ٨٢ .

(٦) مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا فى عام

٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨ .

(١) انظر ديوان البحرى ١٠٧١/٢ ،

١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .

(٢) ديوان البحرى ٧٣٤/٢ .

(٣) الديارات ص ٥٧ .

(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .

أمّا أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانوا يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران<sup>(١)</sup> ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع في يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى في الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالاً كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سماو شرقي بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهمو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمي<sup>(٢)</sup> :

ولرُبَّ يومٍ في سماو تمَّ لي فيه السرور وعُيِّتْ أحزانهُ  
فتلاعبتُ بعقولنا نشواتهُ وتوقَّدتُ بخودنا نيرانهُ  
حتى حسبتُ لنا البساط سفينةً والديرَ ترقص حولنا حيطانهُ

وكان يقام في أكتوبر عيد للقديسة أشمونى في قطربل ، وهى قرية في شمالي بغداد كانت أشبه بجانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن في دجلة بجرأ ، متنافسين فيما يُتأهرونه هناك من زيهم وزيتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون في شط القرية وديرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كثوس الحمر ، وبالمثل كانوا يصنعون في عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة<sup>(٣)</sup> :

ديرٌ تدور به الأقداحُ مترعةً من كَفِّ ساقٍ مريض الطَّرفِ وسنانِ  
والعودُ يتبعه نايٌ يوافقهُ والشَّدوُّ يُحَكِّمهُ عُصْنُ من البانِ

ولا شك في أن كل ما قدمنا أعده لانتشار المجون والخلاعة في سامراء وبغداد ،

(٢) الديارات ص ١٤ .

(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

(١) ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا في

عام ٣٢٣ .

إذ كانت الحمر في كل مكان ومعها القيان والحواري المبتذلات ، فكان طبيعياً أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط في إباحيته وفي التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما في المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقي كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حباهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا في آفة مزرية ، هي آفة الشغف بالغلغان المرء ، وهي آفة ورثوها عن العصر العباسي الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدراج المادة ، وجعلوه غزلاً أفلاطونياً نقياً ، وسنفضل القول في ذلك في أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهاني وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلاني . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون الزكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، ويتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدي أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع لإيهين ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقي ، ولكنه لقي سريعاً المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه في عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبذاً أراقروه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة اللصبيين والغلمان (١) .

وظلت مستعرة في هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة في العصر العباسي الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفي مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعاً بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهب أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يتتغون أن يحدثوا صدعاً لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجسوا في

(١) ابن الأثير ٢٢٩/٨ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون - وعرب البوادي لعصرهم - من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا - ولا يزال كثير من منهم - بدواً رعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقيصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب في إفاضة عن مثالب القبائل في القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضاً .

وتصدى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآتمة ورداً عليها ردّاً عنيفاً ، أما الجاحظ فعقد في كتابه « البيان والتبيين » باباً طويلاً سماه « كتاب العصا » صور فيه طعن الشعوبية على العرب في خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكثرون على القيسي ، مما يصرف - في رأى الشعوبيين - خاطر ويشغل الذهن في أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هي في جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا - فيما زعموا - أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم في صناعة البلاغة كتباً متوارثة . وطعنوا على العرب أيضاً في أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عرّفنا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل الخنازير والعرادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ في عنف شديد ، واكفى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين » ردّاً مفحماً عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الحالية في صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كفى يروا رؤية العين ما في هذه الثقافة من قيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى ندهم . وأما ابن قتيبة فألف في الرد عليهم مبحثاً سماه (١) « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو في مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قوماً من كتاب الدواوين انتمضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشرف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك في باب فسيح من الدعوى

والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

(١) انظر هذا الكتاب في رسائل البلغاء  
لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم في هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية في الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة في كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من التزجود مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنصوّر ذلك في الفصول التالية .

ومن أهم الكتاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البختكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله في الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها (١) . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف في الشعوبية وانتصر لها . وقد أشرنا في كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل في هؤلاء الشعوبيين من يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا في الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد في الأمة عربياً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يفضلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء في الذكر الحكيم : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء في خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وإيس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هي نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمية في الإسلام ميزة تُعلَى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٨٥

الخطأ أن نحصل القائلين بالتسوية على الشعبيين أو على القول بالشعبوية، إنما الشعبيون هم الذين يُعلّون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حائقين حقناً شديداً على كل ما هو عربي ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو نأروا لأبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . ومن كان يذهب هذا المذهب في الحمافة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلي الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول في شعوبية حاقدة ذميمة (١) :

أنا ابنُ الأكارم من نسلِ جَمٍّ      وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمِ  
وطالبُ أوتارهم جَهْرَةً      فمن نام عن حقِّهم لم أتمِّ  
فقلُّ لبني هاشمٍ أجمعين      هلموا إلى الخَلْعِ قبلِ الندمِ  
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز      لأكلِ الضِّبابِ ورغى الغنمِ  
فإني سأعلو سريرَ الملوكِ      بحدِّ الحُسامِ وحرِّفِ القلمِ

وواضح أن قلب المتوكلي يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليطن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسي القديم وأنه قد وكل إليه أخذ الثأر أو الأثار من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بني هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلي في الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسي أن بني هاشم من قريش سكان مكة في القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعبية العمياء الرعناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعبية الحمقاء الزناقة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلاً : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعبية والتأدي فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك

الحزبية ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة»<sup>(١)</sup> . ومَرَّ بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يُوصمُ بها أولاً من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالفضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكارهم الذين كانوا يحاكون زمن المهدي وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقى والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالبين الخفيف أو بالديانات مطلقاً وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضاً في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين - وفي مقدمتهم المعتزلة - تجردوا لخداهم ونقض أقوالهم وآرائهم الخبيثة ، وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفحِّمونهم فيها إفحاماً شديداً ، على نحو ما صور ذلك الجاحظ عن النظَّام في كتابه الحيوان ، وألفوا أيضاً الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة ، وكان من أشدهم نقسراً بدءوا حياتهم في صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُسبِّطون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفي طلعتهم أبو عيسى الوراق التروي سنة ٢٤٧ للهجرة<sup>(٢)</sup> وكان في أول أمره معتزلياً ، وأحسن المعتزلة فيه إلحاده فطرده عنهم ، فتحول شيعياً رافضياً ، وينعته الحياط بأنه كان مانوياً يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم<sup>(٣)</sup> ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل<sup>(٤)</sup> . وقد أثر تأثيراً واسعاً في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الرَّاوَنْدِي<sup>(٥)</sup> المولود فيما بين سنتي ٢٠٥ و٢١٥

الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الراوندي ووفاته مروج الذهب ٢٣/٤ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ٧٦/١ ومرآة الجنان لليانعي ١٤٤/٢ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ١٧٥/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣٥/٢ ومقدمة نيرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبي الفدا في عام ٢٩٣ .

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .  
 (٢) مروج الذهب ٤/٢٣ .  
 (٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .  
 (٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .  
 (٥) انظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في

وكان يعتقد في أول الأمر الاعتزال وصنّف عدداً من الكتب في مناصرته ونشره بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبي عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، بل لقد تهادى في ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف في ذلك كتباً مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يرُمى به في غياهب السجون فاحتبأ في منزل أبي عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ، وله صنّف بعض كُفرياته ، وما زال مخبئاً بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى في نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يكتب له الزواج ، لأن ابن الراوندى الملاحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى في العصور التالية من أيدي الزمن ، فلم يصلنا منها شيء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات في كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات<sup>(١)</sup> من كتابه « الزمردة في دفع النبوات » وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضييلاً حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسول ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغنى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينتقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثاً ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكها ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون النصاحة العربية . ويردد نفي المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله في غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضي في لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل في كتابه المنتظم شذرات<sup>(٢)</sup> أخرى من مصنفه الزمردة ،

(١) انظر في هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ١٨٨٠-٧٤ .  
 (٢) راجعها في كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد في كلام أكرم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من ( إنا أعطيناك الكوثر ) و ( قل أعوذ برب الفلق ) وإن الأنبياء وقعوا ( اهتدوا إلى ) بطلسمات تجذب كما أن المغسطينس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية ( كان مع على بن أبى طالب في صفين وقتله جيش معاوية ) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : « كان ابن الرواندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يتراميان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن<sup>(١)</sup> . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصَّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدماغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يؤويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى : ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتاناً وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلّف الوراقين لسنة ٢٧٩ ألاًّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة<sup>(٢)</sup> ، فقد كان من المتنلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد<sup>(٣)</sup> والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كثرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالحياط ، وقد نشر له المستشرق نيرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عنى بالرد عليه معاصره أبو على<sup>(٤)</sup> محمد بن عبد الوهاب

كتب له فى مقدمتها الزمردة والدماغ .  
انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢  
ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل  
وإسهاب .

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام  
ص ١١٣ .  
(٢) طبرى ٢٨/١٠ وابن تغرى بردى ٨٠/٣ .  
(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .  
(٤) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة

الجسبائي . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندي إلخاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطيب أبو بكر محمد<sup>(١)</sup> بن زكريا الرازي المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيميائياً ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالاً بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندي وأشباهه ينكر النبوات وألف في ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازي أورد في كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردّ عليها ونقضها نقضاً ، وقد حلّمها الدكتور بدوي تحليلاً<sup>(٢)</sup> جيداً ، وأظهر أنه يتابع في حججه وأدلته ابن الراوندي ، فالعقل يكنى وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعي لإرسال الأنبياء ، وأيضاً لا معنى لأن يخص الله نقرأ (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعاً متساوون في الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعماً أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلاً بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفاً على الناس ورحمة بهم . ويتقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما يتقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التي استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل في هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة في العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضاً .

٥

### الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعبوية والمجون في العصر العباسي الثاني أنه كان عصرًا ملحدًا غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص ١٩٨ .

(١) انظر في ترجمته الفهرست ص ٥١٨ وابن أبي أصيبعة والقفطي ص ٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة ، أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة ، وأما الشعبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعبيين والملاحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت في بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها في ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعباد والنساء وكانوا أكثر كثرة من المجان وأهل الفساد . وكان في كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فيما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والحجيم . واختلط الوعظ بقصص ديني كثير على ، نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الأول ، وكثر حينئذ النساء والزهاد في متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقص وتبتل وعبادة ، وقرأ في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يُعَدُّون في العالم الإسلامي بالثقات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجردوا للجهاد في سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول . ويكفي أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم<sup>(١)</sup> بن إسحق الحربي ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته في الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع في الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة في الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

(١) راجع في ترجمته تاريخ بغداد ٢٧/٦

١٩٠/٢ والنجوم الزاهرة ١١٦/٣ ويقال :

كان يقاس بابن حنبل في علمه وزهده .

ومعجم الأدباء ١١٢/١ والأنساب للسماعى

١٦٢ وصفة الصفوة ٢٢٨/٢ وشذرات الذهب

في إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويرُوى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها في جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمر المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمسمًا وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحدًا ، وقد أفضى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيّفًا واحدًا في اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو لإحدى بناته أكله وإلا بقى جائعًا ظامئًا إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة في الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع في هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق الباخى صاحب اليد الطولى في مبدأ التوكل وإشاعته<sup>(١)</sup> بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة<sup>(٢)</sup> . ويعرض القشيري في رسالته أقوالاً مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرّفّة والتنعّم ، أو هى من الصّفاء أو هى من الصّفّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة في المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يندلى القشيري برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة<sup>(٣)</sup> . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد في القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعنى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت في نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

والنشر ص ٥ .

(٢) ما للهند من مقولة للبيرونى (العلبة

(٢) في التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة

الأوربية) ص ١٦ .

أبي العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحي وعنصر بوذي هندي ، ويتضح العنصر الثاني - عنده - في فكرة وحدة الوجود التي تمثلها ، كما يقول ، الحلاج في أواخر القرن الثالث<sup>(١)</sup> الهجري . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لاهو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث . ومن شدد على التأثير الأجنبي جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية<sup>(٢)</sup> الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبي ماسينيون في بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر في الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التي كانت منتشرة في الشرق منذ ميلاد المسيح<sup>(٣)</sup> . وبالمثل خفف من حدة القول بالتأثير الأجنبي نيكلسون ، وإن لاحظته مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره في رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة في عصره ، وأيضاً كما هو الشأن عند أبي يزيد البسطامي وتأثره في رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى في بحوثه يُعَلِّي من شأن التأثير الإسلامي في نشأة التصوف ، ويقال من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبي يزيد البسطامي والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التي وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هي وليده الزهد والتصوف اللذين نشأ في الإسلام وكانا إسلاميين في الصميم<sup>(٤)</sup> .

وإذن فالتصوف إسلامي في جوهره وفي نشأته وتعمده وتطوره ، وهو الرأي العلمى الصحيح ، ولكنى نتصور التصوف في دقة في أثناء هذا العنصر ، يحسن أن نستعرض أئمتنا الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته في نفوس العصور التالية ،

(٣) راجع مقدمة عفيفي لكتاب نيكلسون السابق .

(٤) انظر مقدمة عفيفي وكتاب في التصوف الإسلامى في مواضع مختلفة .

(١) انظر نيكلسون في مبعثه عن الحلاج ومقدمة عفيفي .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٣٦ وما بعدها .

وأولهم الحارث<sup>(١)</sup> بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهي تدل بوضوح على أنه جدّ في ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة ، وكان يعتقد مذهب الشافعي ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يروى أنه لما مات أبوه وكان هو في عَوْر وإملاق في حين خَلَف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا في قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه في ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التي لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات<sup>(٢)</sup> ، ورفض أن يفرض التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعي في الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذو النون<sup>(٣)</sup> المصري المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقي لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغري بردي — أول من تكلم في مصر في الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم في التصوف ، بل أستاذ المشاركة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامي حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسمًا مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فصّل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمي ص ٢٣ ،  
وتاريخ بغداد ٣٩٣/٨ وتاريخ دمشق لابن  
عساكر ٢٧١/٥ ومرآة الجنان لليافعي ١٤٩/٢  
والنجوم الزاهرة ٣٢٠/٢ والطبقات الكبرى  
للشمراني ٥٩/١ وأخبار الحكماء للقفطي  
١٨٥ وشذرات الذهب ١٠٧/٢ ورسالة  
القشيري في ص ٩ وفي مواضع متفرقة ونيكلسون  
ص ٧ وما بعدها .

(١) نشأ في البصرة ثم انتقل في شبابه إلى  
بغداد ، انظر في ترجمته تاريخ بغداد ٢١١/٨  
والأنساب للسعدي ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات  
الشافعية للسبكي ٢٧٥/٢ ومرآة الجنان ١٤٢/٢  
والنجوم الزاهرة ٣١٦/٢ والتهديب لابن حجر  
١٣٤/٢ وكتاب طبقات الصوفية للسلمي  
(طبع باريس) ص ٤٦ .  
(٢) انظر باب الرضا في الرسالة القشيرية .  
(٣) راجع في ترجمة ذي النون وآرائه الفهرست

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربّه؟ فقال: «عرفتُ ربِّي بربي ولولا ربِّي لما عرفتُ ربِّي» ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل في قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن . وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدعيًا » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسي . ومن قوله أيضاً : « الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقته عنه الجوارح بقطع العلاقات» وكان يقول إن العارف ( الصوفي ) لا يلزم ربه في حالة واحدة وإنما يلزمه في الحالات كلها . وكانت تجرى في كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلافه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفي ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السري<sup>(١)</sup> السقطي المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم في وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم في المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لدى الذنوب تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو؟ فقال :

عساكر ٧١/٥ وطبقات الشعرا ١/٦٣ .

(١) راجع في ترجمة السقطي طبقات الصوفية

للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله»<sup>(١)</sup> ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرِف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرِى على أيدي الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْحَبُّ حَسْبُ فُؤَادِهِ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفْتَتِ الْأَكْبَادُ  
ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتمشقية عنيفة .

وإذا كان ذوالنون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعة نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طينور<sup>(٢)</sup> بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله: « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحَيِّت رسومه وفيت هُوِيَّتَه بهُوِيَّتَه غيره ،: وَغِيَّبَتْ آثارَه بِآثارِ غَيْرِهِ » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فى : يا مَنْ أَنْتَ أَنَا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله » . وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شأنى » وقوله : « خرجت من بايزيديتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد » . ويمكن أن يردَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معارجه إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ روى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه ، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجبَّة إلا الله » و : « ما النار !؟ لأستندنَّ إليها غداً وأقول

مختلفة وطبقات الشعرانى ١/٦٥ وميزان الاعتدال  
للذهبي ٢/٣٤٦ والنجوم الزاهرة ٣/٣٥  
ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

(١) تهذيب ابن عساكر ٦/٧٨ ونيكلسون  
ص ٢٩ .  
(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمى  
ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للشيرى فى مواضع

اجعلني لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟ ! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلده بسطام - في الجنوب الشرقى لبحر الخزر - أنه زعم أن له معراجاً إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام . ولعل في ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية في تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدت لأن تصيح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء في الذات الإلهية ، تلك الفكرة التي أخذت مكاناً مهماً في التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل في التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، في الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس مبهة الله » فأجابته : « غيرك شرب بحور السموات الأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »<sup>(١)</sup> ، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والحفاظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها<sup>(٢)</sup> .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت في الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر في مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفاً ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رموس المناير بيغداد في اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر جمع الهمة والعشق والقرب والأنس<sup>(٣)</sup> ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع في الكلام عن الفناء<sup>(٤)</sup> . ويظهر حينئذ حمدون<sup>(٥)</sup> القصّار النيسابورى المدفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دعاً مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

والنهى وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٤٦/٣ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامية

والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيف .

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر

شذرات الذهب ١٤٣/٢ .

(٢) انظر ترجمته في ميزان الاعتدال ، ويقول

الذهبى : ما أحل قوله : لو نظرتم إلى رجل

أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواه فلا

تفتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ، إذ يبسّدون في مظهر المذنبين دائماً ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما في هذا العصر فنجد المتصوفة دائماً يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التستري الصوفي المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والافتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »<sup>(١)</sup> وفي رسالة القشيري أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفي ظهر بأخرة من القرن الثالث الهجري<sup>(٢)</sup> المتوفى سنة ٢٩٧ وينسب بالقرابيري الخزاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هوبيع الخزّ ، وأصله من نهاوند بالقرب من همدان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السريّ السقطي وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السريّ بدوره عن معروف الكرخي . وكان ورده في اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسيحة ، وفي طبقات الصوفية للسلمي أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القليل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلي كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقْتَدَى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسي الثاني نظام الطرق والمريدين في التصوف ، فلإمام الصوفي طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها في موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامي . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصبغها بصبغة جاهلية شعبية ، وإن كان قد رشح لأن يكون الارتباط في الطريقة بالإمام الصوفي نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

(١) السلمي ص ٢٠٣ .

(٢) انظر في ترجمة الجنيّد تاريخ بغداد

٢٥١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٢ وشذرات

الذهب ١/٢

(٢) انظر في ترجمة الجنيّد تاريخ بغداد

٢٤١/٧ والرسالة القشيرية في مواضع مختلفة

وابن خلكان والسلمي ص ١٤١ وطبقات

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأترون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنييد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات في الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء ، وأخذ عنه تلاميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له في أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج في كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنييد ويفسرهما تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنييد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث في غير هذا الموضوع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين في العصر الحكيم<sup>(١)</sup> الترمذى محمد بن علي بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق في دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذي أدخل بقوة نظرية الولاية في البيئات الصوفية وكل ما جرت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته في خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر في الكتاب المذكور أن عيسى يعود في آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلده « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكي : دافع عنه السلمي معتدراً عنه ببعده فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدُّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجري تلقانا ظاهرة جديدة في بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتبون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم في أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبي الحسين النوري

ورسالة الفشيري في مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٢١٨ .

(١) انظر في ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمي ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وطبقات الشعرائي ١/١٠٦

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين بنظمون الشعر معبرين به عن التبايع قلوبهم في الحب آمليين في الشهود مستسلمين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استثنائاً مطلقاً ، نذكر منهم سمون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلي دُلف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسي الثاني لم يكد ينتهي حتى تأصلت في التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسنرى في موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التي يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق في حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .